المحاضرة السادسة عشر: المذاهب الأدبيّة

تمهيد:

يرتبط الاهتمام الفعليّ بالمذاهب أو الاتّجاهات الأدبيّة بعصر النهضة في أوروبا، تلك المذاهب التي بلورتها مدارس أدبيّة تضمّ مجموعة من الأدباء والنقّاد يتّفقون حول آراء فكريّة وفنيّة تجاه الأدب والفنّ عموما، ويستند المذهب الأدبيّ إلى نظريّات معيّنة في الفكر والفلسفة، تكون أساسا لمبادئه وقيمه وطرائق معالجته للآثار الإبداعيّة.

1. مفهوم المذهب الأدبيّ:

ذكر **محمد مندور** أنّ "العصور القديمة لم تعرف المذاهب الأدبيّة، كما لم تعرف في العصور الوسطى، وإنّما أخذت تتكوّن ابتداءً من عصر النهضة، والذي تجب الفطنة إليه عند البحث في نشأة المذاهب الأدبيّة، هو أن لا نتصوّر أنّه قد قُصِد إلى خلقها، فوضع الشعراء أو الكُتّاب أو النُقّاد أصولها من العدم، ودعوا إلى اعتناق تلك الأصول، وذلك أنّ الحقيقة التاريخية هي أنّ المذاهب الأدبيّة حالات نفسيّة عامّة ولّدتها حوادث التاريخ وملابسات الحياة في العصور المختلفة، وجاء الشعراء والكُتّاب والنقّاد فوضعوا للتعبير عن هذه الحالات النفسيّة أصولا وقواعد تتكوّن في مجموعها المذاهب، أو ثاروا على هذه القواعد والأصول لكي يتحرّروا منها، وبذلك خلقوا مذهبا جديدا على نحو ما ثار الرومانتيكيون على الكلاسيكيّة"[1].

وفي موضع آخر نجد تعريفا للمذاهب الأدبيّة بكونها: "اتّجاهات فنيّة كبيرة تمثّل الذوق السائد في عصر من العصور وتتّسم بطابع واسع يسِم ذلك العصر ويميّزه، وقد جاء ظهورها حديثا في أوروبا مترافقا مع عصر النهضة فيها، وتكمن أهميّة دراستها ببيان النشاط الأدبيّ السائد إذ تكشف دراسة المذاهب السبيل إلى التعرّف على مختلف نواحي الأدب المعاصرة لها والمنبثقة عنها"[2].

1. المذهب الكلاسيكي:

[1] . محمد مندور، في الأدب والنقد، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، المملكة المتحدة، 2022، ص69.

[2] . حسن الخاقاني، في النقد الأدبي الحديث والمذاهب الأدبيّة، ط1، مكتبة الباقر، النجف، العراق، 2010، ص109.

يُعدّ المذهب الكلاسيكي (الكلاسيكية Le Classicisme) من المذاهب الأدبيّة الأولى التي عجّلت بظهورها فكانت أكثرها انتشارا وأشدّها تأثيرا وأقواها صدًى في أوروبا، حيث استندت على فكرة إحياء الآداب الأوروبيّة القديمة، اليونانية والرومانية واللاتينية، والنسج على منوالها، وتعود إرهاصات ظهور الكلاسيكية في أوروبا إلى القرن السادس عشر، لكن تأثيرها بلغ أوجّه في القرن التاسع عشر، لاسيما في فرنسا، وقد ركّزت الكلاسيكية جهودها على فنّ المسرح وفيه تجلّت أهمّ آثارها وخصائصها، وذلك لأسباب فنيّة أبرزها أنّ الفنّ التقليدي القديم الذي ورثه الأوروبيون من أسلافهم يقوم على المسرح، بقسميه: التراجيديا والكوميديا، ومن أبرز رواد هذا المذهب نذكر: **كورناي** (1684/1606م) صاحب مسرحيات: ميديا، السيد... وكذلك **جان راسين** (1699/1639م) ومن مسرحياته: الاسكندر الأكبر، اندروماك، فيدور... وكذلك **موليير** (1673/1622م) صاحب مسرحيات: دون جوان، مدرسة الأزواج، البخيل وغيرها.

ومن النقاد الكلاسيكيين نذكر: **بوالو** (1711/1636م) الذي استند إلى المبادئ الجمالية التي اعتقد أنّه تمثّل قوانين العقل، وقد استعمل قصائده الهجائيّة لانتقاد الشعراء الرديئين، وله كتاب بعنوان: فنّ الشعر 1674م، ضمّ جهوده النقدية في مجال الفنّ.

من خصائص المذهب الكلاسيكي نذكر:

- يستمدّ أفكاره ومبادئه وقيمه الفنيّة من التراث الأدبي والنقدي الاغريقي واللاتيني، الذي كان بالنسبة له مثالا وأنموذجا ساميا يستحقّ الاحتذاء به.
- يصدر الأدب الكلاسيكي عن العقل الذي يُماثل عند منتجيه الذوق السليم، ويعدّ أساسا لفلسفة الجمال لديهم، ومن أهمّ سمات العقل: الاعتدال والوضوح وهو ما يجب أن تتّسم به الآداب أيضا.
- العناية بالقواعد وجودة الأسلوب واحترام أصول اللغة وقوانينها[1].
- الاهتمام بالطبقات العليا في المجتمع وتمجيد الأرستقراطيّة.
- الاهتمام بالأدب التمثيلي مع تمجيد المواضيع التي تنشد القيم والأخلاق العالية.

2. المذهب الرومانسي:

[1] . يُنظر؛ حسن الخاقاني، في النقد الأدبي الحديث والمذاهب الأدبيّة، ص116.

ظهر المذهب الرومانسي (الرومانتيكي Romanticisme) هو الآخر في أوروبا، وجاء كردّ فعل على مغالاة المذهب الكلاسيكي في الاقتداء بالآداب اليونانيّة والرومانيّة القديمة، فكانت دعوة الرومانتيكيين تقوم أساسا على نشدان العواطف واستكشاف دورها في الحياة الإنسانيّة، وإعادة الاعتبار للغة الأدب التي أنهكها الاستخدام الكلاسيكي لها، وقد أدّت عوامل كثيرة إلى ظهورها في مقدّمتها: التيارات الفلسفيّة الدّاعية إلى الحريّة الفرديّة، ترجمة بعض الآثار الشرقيّة التي تقوم على عامل التخييل، التحوّل الاجتماعي والسياسي الذي أعلى الطبقة البورجوازيّة على حساب الطبقة الأرستقراطية في المجتمع... وغيرها.

من أبرز روّاد المذهب الرومانسي نذكر: **فيكتور هيغو** (1885/1802م) **وغوته** (1832/1749م) **وكولريدج** (1834/1772م) وغيرهم من الأدباء الذين جسّدوا مبادئ المذهب الرومانسي في أعمالهم، تلك المبادئ التي ترتكز أساسا على:

- الفصل بين المُثل اعليا والواقع الحياتي الاجتماعي الذي يعيشه الفرد.
- نبذ الحياة الماديّة ونشدان الحياة الروحيّة.
- الاهتمام بالطبيعة والحلول في عناصرها بما يُتيح للإنسان الشعور بالهدوء والحبّ والسّكينة.
- الاهتمام بالخيال والهروب من مفاسد وشرور الواقع، ولعلّ هذا المبدأ هو الذي أسهم في أفول نجم الرومانسية لتحلّ محلّها الواقعيّة.

3. المذهب الو اقعي:

تعدّدت مفاهيم الواقعية بتعدّد الاتجاهات الفكرية وتنوّعها، وهي عند بعض المفكّرين الغرب، ومنهم الكاتب **شامبفلوري** (Champ Fleury 1889/1821م)، تقوم على ضرورة تقديم تمثيل دقيق للعالم الواقعي، كأن تُدرس الحياة بشتّى مظاهرها الاجتماعية من عادات وغيرها، استنادا إلى الملاحظة الدقيقة والتحليل المرهف، وبطريقة موضوعيّة خالية من العواطف والنزعات الشخصيّة، وعلى الروائي أن يدرس مظهر الأشخاص ويسألهم ويتعرّف على محيطهم،

ليدوّن بعد ذلك حُججه، واضعا حدّا لتدخّل خياله إلى أقصى درجة[1]، وقد عرض **شامبفلوري** آراءه النقدية في مجلّد يحمل اسم: الواقعية، وذلك سنة 1857م، كما أصدر مجلة أدبيّة تحمل الاسم نفسه، اتّضحت من خلالها معالم مصطلح الواقعية وتحدّدت دلالته، برأي (صلاح فضل).

فنّدت مقولة **شامبفلوري**، بالإضافة إلى آراء **بيكون وديدرو** وبعض فلاسفة ألمانيا وروسيا، المقولات الفلسفة المثالية التي قيّدت الأدب بالأفكار والأحلام والأوهام، كما أقرّت بأسبقية الفكرة على صورتها الماديّة، ورهنت الإبداع بالموهبة والعبقرية الفرديّة، حتّى غدت الأشياء عندها أفكارا "سرعان ما تتمثّلها قائمة بذاتها، لا تُدرك إلّا من خلال تصوّرات تخمينية، لا تلتفت إلى الواقع، بل تشكّ فيه، وتحاول تجاوزه إلى قداسة الفكرة، لذلك انفصلت نهائيّا عن الواقع وظواهره، وحلّقت بعيدا عنه، وهي تحيط نفسها بهالات من التجريد، تعجز عامة الناس عن إدراك ماهيّتها"[2]، وهي في عمومها، امتداد للفكر اليوناني الذي أثّثته آراء أفلاطون وأرسطو المثاليّة.

وبظهور بعض الأبحاث والكشوفات الوضعيّة نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والتي تقوم على الملاحظة الدقيقة وعلى التجريب، كالبحوث الإنسانيّة والاجتماعية، وكذا علوم الطبيعة والوراثة والبيولوجيا وغيرها، حيث قاربت الواقع من وجهة نظر علمية ماديّة بحتة، فكانت إرهاصا حقيقيا لانبثاق منهج فكريّ جديد في العلوم والفنون، ينزع نحو الواقعية، بعيدا عن الأفكار المثالية المجرّدة.

وإذا نظرنا إلى ظروف نشأة الاتجاه الواقعي في الأدب، نجد إلى جانب التطور المادّي والتقدّم الذي شهدته مجالات العلم والمعرفة عصر النهضة، كما ذكرنا آنفا، استتباب الاتّجاه الرومانسي في الأدب، الذي كان معينا داعما للواقعيّة، مغذّيا لأفكارها، لكن بعض الأدباء بالغ في تبنّي هذا الاتّجاه الذي حاد بهم، في مراحل متقدّمة منه، عن الموضوعية في معالجة قضايا الفرد والمجتمع، حيث أضحى توجّها تحكمه روح التملّك النفعيّة المُغالية في تقديم المصلحة الذاتية على مصالح

[1] . ينظر، صلاح فضل، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1980، ص13.

[2] . حبيب مونسي، نقد النقد (المنجز العربي في النقد الأدبي، دراسة في المناهج)، دط، دار الأديب، وهران، الجزائر، 2007، ص62.

الآخرين، فانفصلت عنه الأفكار الواقعيّة بصورة جزئيّة تدريجيّة، ثمّ استقلّت بأطرها النظرية وكذا التطبيقية فيما بعد، وتجلّت أكثر في المسرح والقصّة والرواية.

يمكن رصد تصوّرات عدّة انبنت عليها مبادئ النقد الواقعي وقواعده، وهي في عمومها تتلخّص فيما يأتي:

- يشكّل الواقع ركيزة النقد الواقعي واللّبنة الأساسة التي تُبنى عليها الأفكار والآراء.
- تصوير الواقع ورصد مجرياته بكلّ صدق وأمانة؛ أي دون تزييف أو تمويه لحقائقه.
- على الأدب أن يرتبط في تصويره الفنّي بالحياة الاجتماعية، وأن لا يكون وصفه لها سطحيّا بل عميقا يغوص في جوهرها.
- الابتعاد عن القضايا الفردية ذات الأبعاد الذاتية والالتزام بقضايا الجماعة.
- الفنّ عند أنصار النقد الواقعي "يصدر عن نظام معيّن لا عن منطق يصلح لسائر المجتمعات، وكذلك فإنّه يخضع لتطوّر هذا المجتمع المعيّن، فلا يجمد عند مرحلة معيّنة من مراحل التطوّر الاجتماعي، ويفضي التنظيم الاجتماعي إلى ظاهرة الانسجام التي تبعث على الإحساس بالجمال"[1]، وكلّما اختلّ ذلك الانسجام، باختلال عناصر المجتمع، صار باعثا على الإحساس بالقبح بدل الجمال.
- التفاعل التام بين الأديب والواقع، حتى يصبح أدبه انعكاسا واعيا لذلك الواقع، وهي الفكرة التي طرحها (جورج لوكاتش) في نظرية الانعكاس.
- ينظر النقد الواقعي إلى الأديب من زوايا إيديولوجيّة مختلفة، فالواقعية النقدية ترى فيه ناقلا أمينا للواقع، والواقعية الطبيعية تراه صانعا ومنتجا يخضع لقانون العلم والتجربة، أمّا الواقعية الاشتراكية فتشترط أن يكون الأديب مصلحًا، مناضلا ومتفائلا بالمستقبل.
- تشريح الواقع وتفسير ظواهره انطلاقا من مُعطى مادّي واقعي لا مثالي تخييلي.
- تحرّي الصرامة والموضوعيّة في تشخيص مشكلات الواقع.
- تصوير حياة الإنسان داخل مجتمعه وفق سيرورة تاريخية تُعنى بتطوّرهما زمنيّا في ظروف معيّنة.

[1] . حبيب مونسي، نقد النقد (المنجز العربي في النقد الأدبي، دراسة في المناهج)، ص70.